الدرس الثامن والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

فيقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب قول الله تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران:١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] .

****

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾**)) ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان أن من واجبات التوحيد العظيمة حسن الظن بالله تبارك وتعالى ، وأن مما يتنافى مع التوحيد سوء الظن بالله تبارك وتعالى ، ومرجع ذلك إلى باب المعرفة بالله سبحانه وتعالى الذي هو التوحيد العلمي ؛ المعرفة به وبأسمائه وصفاته وعظمته ورحمته وكرمه وإحسانه ، فإن العبد كلما عظُم نصيبه من هذه المعرفة بالله تبارك وتعالى فإنها تثمر فيه حسن ظنٍ بالله ، لأن منشأ حُسن الظن حُسن المعرفة بالله ، ومنشأ سوء الظن سوء الظن بالله ، فحسن الظن راجعٌ إلى حسن المعرفة بالله جل وعلا ، وسوء الظن راجع إلى سوء المعرفة بالله تبارك وتعالى ، وكلما كان العبد بالله سبحانه وتعالى أعرف كان أحسن ظنًا بالله جل وعلا ، وكلما كان بالله أجهل كان أسوء ظن بالله جل وعلا .

فمسألة حسن الظن وسوء الظن راجعة إلى المعرفة ، ولهذا جاء في كلام ابن القيم رحمه الله الذي نقله المصنف قال: «**ولا يسْلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده**» ، فالمسألة راجعة إلى ذلك وهذا يبين لنا أن باب المعرفة بالله عز وجل بابٌ شريف وعظيم للغاية ، وهو أشرف العلوم وأجلّها لأن ثماره وآثاره على العبد لا حدَّ لها ولا عد ؛ كلما زادت هذه المعرفة زاد الصلاح وزاد الخير وأيضا عظُم بعد الإنسان عن ما يسخط الله جل وعلا ، كما قيل : «من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته

أبعد» ؛ بمعنى أن هذه المعرفة لها آثارها وثمارها الكثيرة والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] .

وهذه الترجمة كما قدمت عقدها رحمه الله تعالى لبيان هذا الأمر العظيم الذي هو حسن الظن بالله . وحسن الظن بالله معدودٌ في أعظم النعم التي يمن الله سبحانه وتعالى بها على عبده ، قد نقل الإمام ابن أبي الدنيا رحمه الله في كتابه "حسن الظن بالله" وهو كتابٌ مطبوع وعظيم في بابه ، روى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «والله الذي لا إله إلا هو ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً أعظم من حسن الظن بالله» ؛ وهذا كلام حق ، لأن حسن الظن بالله إذا وجد حقًا وصدقًا في العبد فهذا دليل صلاح العقيدة وصلاح المعرفة كما قدمت لأنه مبني عليه ، حسن الظن بالله مبني على حسن المعرفة بالله سبحانه وتعالى ، فإذا وُجد فعلًا وحقًا وصدقًا في العبد حسن الظن بالله تبارك وتعالى فهذه أجلّ النعم وأعظم المنن .

وإذا وُجد في العبد حسن الظن بالله فالله عند ظن عبده به كما جاء في الصحيحين الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى قال : ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)) وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة ، ورواه أحمد في المسند رحمه الله وزاد ((إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ)) ، وجاء في الحديث الآخر حديث واثلة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((قال الله تعالى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ)) . فباب حسن الظن بالله عز وجل باب عظيم ومبارك على العبد ومنشؤه صلاح الاعتقاد وصلاح المعرفة وصلاح الإيمان بالله تبارك وتعالى.

وسوء الظن كما قدمت راجعٌ إلى خلل في الاعتقاد وفساد في الإيمان ، ولهذا عدَّ الله سوء الظن في أوصاف المشركين وأوصاف المنافقين كما في الآية الآتية التي أشار إليها ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] ؛ فذكر ظن السوء في أوصاف أهل النفاق وأهل الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وذكر حسن الظن به تبارك وتعالى في أوصاف أهل الإيمان ، لأن الإيمان الحق والإيمان الصادق يثمر ولابد حسن الظن بالله تبارك وتعالى .

ثم إن حسن الظن بالله جل وعلا ناشئٌ في العبد من الصلاح الذي أكرمه الله به ؛ صلاح الإيمان ويتبعه صلاح العمل ، ولهذا يوجد حسن الظن فيمن كان هذا وصفه ؛ صلَح منه الإيمان والعمل وكان مستقيمًا على طاعة الله تبارك وتعالى ، ولهذا يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى : «إن المؤمن أحسن بربه الظن فأحسن العمل ، وإن الفاجر أساء بربه الظن فأساء العمل»، وانظر الارتباط بين حسن الظن وحسن العمل ، وسوء الظن وسوء العمل؛ كما أنه من جهة أخرى له ارتباط بالاعتقاد كما قدمت بيان ذلك .

فباب حسن الظن باب مهم للغاية في التوحيد ولهذا عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة ؛ لبيان مكانة حسن الظن بالله جل وعلا من التوحيد ، وأن حُسن الظن بالله من واجبات التوحيد العظيمة التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن ، وأن ضده الذي هو سوء الظن بالله جل وعلا إنما هو من أوصاف المنافقين والمشركين .

أورد رحمه الله مصدرًا هذه الترجمة به قول الله عز وجل: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ؛ وهذا ذكره الله سبحانه وتعالى في وصف أهل النفاق . وهذا السياق يتعلق بما كان في غزوة أحد وما حصل فيها من شدة وهمٍّ وكرب ثم جاء بعده النصر والفرج . والمنافقون لما حصل ما حصل قالوا هذا الكلام الذي هو قائم على سوء الظن بالله تبارك وتعالى ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يعني أن هذا الحصل والهزيمة التي كانت في بدء الأمر فبدرت منهم على إثرها هذه المقالة ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني جئنا هنا بغير اختيار ولم يؤخذ لنا رأي ، وهذا لم يقولوه تسليمًا بالقضاء ، يعني لم يقولوا «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ» هذا الاستفهام بمعنى النفي يعني ليس لنا من الأمر من شيء ، ليس مرادهم ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾أي أن الأمر كله بتدبير الله ، وإنما قالوا ذلك عدم تسليم للقضاء ، لأن القضاء وقع والأمر حصل فيقولون ذلك عدم تسليم للقضاء ؛ ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾أي لو كان لنا من الأمر من شيء ووكل الأمر لنا لما حصل هذا الذي حصل . ولهذا ردَّ الله عليهم جل وعلا بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ؛ أي بتدبيره وتسخيره ، ولا يكون في هذا الكون إلا ما شاءه سبحانه وتعالى وقضاه وقدَّره جل في علاه .

وهذا قاله هؤلاء عندما حصل شيء من الغلبة في أول الأمر للكفار فقالوا هذه المقالة ، والله سبحانه وتعالى قال قبل ذلك :﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ وهذا شيء عجيب سبحان الله!! ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ والمراد بالطائفة هنا: أهل الإيمان وأهل التوكل على الله والثقة به وحسن الالتجاء إليه جل وعلا ؛ أنزل عليهم من بعد الغم أمنة نعاس ، في اصطفاف وفي معركة وأمامهم الأعداء ويُنزل الله عليهم في تلك اللحظات أمنةً نعاسا يغشى أهل الإيمان فقط ، أما هؤلاء أهل الكلمة التي هي سوء الظن بالله تبارك وتعالى فأمْرهم آخر ، قلوبهم مارجة ومضطربة ، لكن أهل الإيمان غشيَهم هذا النعاس وأمامهم العدو! حتى يزول عن هذه القلوب ما حصل من شدة وغم تطمئن ويدخلها الأمن والقوة والثبات ويتجدد منهم اللقاء للعدو بقوة وثبات وتمكن ، ويزول عن القلوب ما كان فيها من شيء من القلق أو الانزعاج أو نحو ذلك ؛ فأنزل عليهم في تلك اللحظات نعاسًا يغشى طائفة أهل الإيمان ، فكان أحدهم يميل رأسه من النعاس ويسقط سيفه من يده ثم يتنبَّه

ويأخذ السيف ، ويغشاه النعاس مرة أخرى ، فكان هذا النعاس أنزله الله تبارك وتعالى أَمَنَة وطمأنينة . ولهذا يختلف -كما جاء في هذا أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما- يختلف النعاس في الجهاد والنعاس في الصلاة ؛ النعاس في الجهاد من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . النعاس في الجهاد هذا أمنة يلقيها الله سبحانه وتعالى على قلب المجاهد سكونًا وطمأنينة ، وأما في الصلاة فهذا من الشيطان حتى يفوِّت عليه حظه ونصيبه من هذه الصلاة وما فيها من خير وذكر وبركة .

قال الله عز وجل: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ وهؤلاء أهل الريب ؛ أهمتهم أنفسهم : أي قلوبهم قلِقة ومضطربة ، ومثل هذه القلوب لم يغشاها النعاس الذي يصحبه السكون والأمنة والطمأنينة ؛ فكانت قلوبهم قلقة ومنزعجة وقالوا في أثناء ذلك مقالتهم هذه ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ .

الشاهد أن الله عز وجل ذكر هذا الظن السيئ وصفًا للمنافقين أهل الريب وأهل الشك ؛ ذكره وصفا لهم قال: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي الظن الباطل ، ما هو الظن الباطل؟ ظنوا في هذه اللحظات أن الأمر الذي سيكون هو أنَّ الغلبة ستكون للكفار ، وأن الإسلام سيبيد ، وأن المسلمين لن يبقى لهم باقية ، وأن الدولة والغلبة تكون للمشركين ويبقى لهم ذلك بقاء مستمرًا ؛ ظنوا ذلك . وهذا ظن بالله باطل ظن سوء ، الله جل وعلا وعد أولياءه ومن نصر دينه وعدهم بالنصر والتمكين ؛ ولهذا مقام الجهاد من الأسس المهمة التي يقوم عليها حسن الظن بالله عز وجل أنه ينصر أولياءه وأنه يمكِّن لدينه وأنه يجعل دائرة السوء على أعداء دينه ، يقوم على الظن الحسن بالله تبارك وتعالى ، أما من ليس عنده حُسن ظنٍ بالله تبارك وتعالى كيف يكون جهاده؟ وكيف يكون ملاقاته للأعداء ؟ ويأتي تفسير ابن القيم رحمه الله تعالى لهذه الآية فيما نقله المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((وقوله ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ [الفتح:٦])) وهذا ذكره الله جل وعلا في سورة الفتح وصفًا لأهل الشرك وأهل النفاق ؛ ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، ولهذا قال بعض العلماء: لم يأتِ في القرآن وعيد مثل ما جاء في الوعيد على سوء الظن بالله كما في هذه الآية الكريمة ، فهذا وعيدٌ شديد ذكره الله سبحانه وتعالى في حق من كان سيء الظن بالله تبارك وتعالى .

ثم ساق رحمه الله كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسير الآية الأولى .

((قال ابن القيم في الآية الأولى: «فُسر هذا بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل ، وفُسر بأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ، ففُسِّر بإنكار الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يُتم أمر رسوله وأن يُظهره على الدين كله؛ وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح ، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق»)) .

يقول ابن القيم رحمه الله ملخِّصًا ما جاء في ألفاظ السلف وعباراتهم في تفسير الآية ، لخَّص رحمه الله ذلك بهذه الخلاصة الدقيقة الوافية ؛ فقوله «فُسر.. وفسر» إلى آخره هذا تلخيص لتفسير السلف رحمهم الله تعالى لهذه الآية.

«**ففسر هذا بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره** -أي الرسول عليه الصلاة والسلام- **سيضمحل**» ؛ وهذا سوء ظنٍ بالله من جهة وعده الصادق بنصر رسوله ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾[غافر:٥١] ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم:٤٧] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وهذا وعد من الله عز وجل ؛ فمن ظن هذا الظن أن الله لا ينصر رسوله ، وأن أمر الرسول عليه الصلاة والسلام سيضمحل وينتهي ، وأنه سيكون في تلك اللحظة غلبة للمشركين لا تقوم بعدها أي قائمة لأهل الإسلام ؛ فهذا ظن السوء بالله تبارك وتعالى من هذه الجهة .

قال : «**وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته**» ؛ ولهذا قال العلماء : إن قول هؤلاء ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾هذا فيه إنكار للقدر ، لأن القدر وقع والأمر حصل وكان ، ثم يقولون «هل لنا من الأمر من شيء»!! إذًا هذا فيه عدم تسليم بالقدر القدر وقع والأمر حصل ، ثم يقولون هل لنا من الأمر من شيء؟! استفهام إنكاري أي ليس لنا من الأمر من شيء ، لو كان الأمر لنا لما حصل هذا القدر، كأن هذه العبارة مؤدى كلامهم ومآل كلامهم ؛ أنه لو كان لنا من الأمر من شيء وأُخذ منا الرأي لما حصل هذا القضاء . فهذا يتضمن إنكار القدر ؛ وهذا سوء ظن بالله من هذه الناحية من جهة إنكار القدر وعدم التسليم .

قال : «**وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يُتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم**» أيضا هذا الذي حصل لأهل الإيمان لله سبحانه وتعالى فيه حكمة ، ومن الحكَم التي فيه : أن يميز بين الخبيث والطيب ، ومن الحِكم: أن أمر هؤلاء انكشف وظهر ، وتمحص أهل الإيمان من أهل النفاق ، فلله سبحانه وتعالى فيه حكمة ، وأيضا فيه تمحيص لقلوب أهل الإيمان لأن مثل هذه الشدائد تقوّي قلب المؤمن وصلته بالله وقوة توكله على الله سبحانه وتعالى ، ويُذهب الله عنه به ما وُجد في القلب من قصور أو ضعف ؛ فمثل هذه الأمور تقوي إيمان الشخص وتمحص إيمان المؤمن ؛ فهذا فيه حِكَم لله جل وعلا

عظيمة ، لكن كلام هؤلاء «يظنون بالله غير الحق» فُسر بإنكار القدر ، وفُسر بإنكار الحكمة على المعنى الذي أشرت إليه .

قال : «**وإنكار أن يتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يُظهره على الدين كله**» والله جل وعلا وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد . قال : «**وهذا هو ظن السوء**» .

من خلال عبارات السلف –وكلها صحيحة– ندرك المعنى الذي أشار إليه رحمه الله تعالى في المسائل قال : «الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصى» ؛ يعني سوء الظن بالله ليس نوعًا واحدًا بل أنواع كثيرة جدا تدخل تحت هذا الباب وسيأتي إشارةٌ من ابن القيم رحمه الله إلى شيء من ذلك .

قال: «**وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح**» أي في الآية التي ساقها ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ .

«**وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظنَّ غير ما يليق به سبحانه**» كما تقدم معنا في الآية ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي غير ما يليق به جل وعلا وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق .

قال رحمه الله :

((فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدَّره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار)).

يقول رحمه الله : «**فمن ظن أنه** –أي الله– **يديل الباطل على الحق**» يعني يجعل الدولة للباطل والغلبة للباطل ، «**يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة**» بمعنى أن الإسلام بعد ذلك يضمحل ويتلاشى ولا يبقى منه شيء . من ظن ذلك «**أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره**» ومر معنا أن قولهم ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يتضمن إنكار القدر ، لأن الأمر وقع ثم بعد وقوعه يقولون «هل لنا من الأمر من شيء؟» يعني لو كان لنا من الأمر ما حصل هذا ، فهذا يتضمن إنكار القدر .

«**أو انكر أن يكون قدره لحكمة**» ؛ وهذا أيضا سوء ظن بالله لأن مثل هذا القدر الذي حصل وهو شيء من الانتصار أو الغلبة للكفار لوقتٍ ما أو للحظات ما هذا فيه تمحيص وفيه تقوية لإيمان المؤمنين وتقوية لصلتهم بالله تبارك وتعالى ، وفيه أيضًا اتخاذ شهداء منهم وهذا اصطفاء واجتباء من الله يجتبي من شاء من عباده لذلك وهي

رتبة علية من رتب الدين ، ففيه هذه الحكم العظيمة . فقول هؤلاء أيضا يتضمن إنكار الحكمة وأن الله له حكمةٌ بالغة يستحق عليها الحمد .

«**بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة**» أي بدون حكمة أن هذه أشياء تقع بمشيئة الله لكن بدون حكمة ، ومعنى ذلك: إذا كان يعتقد في الله عز وجل مشيئة مجردة بدون حكمة معنى ذلك أنه يمكن أن ينسب إلى الله من يعتقد هذه العقيدة أنَّ الله يجعل الغلبة والظهور والتمكين للكفار ، وأن دينه يضمحل وأنه لا ينصر دينه ولا يُعلي كلمته؛ كل هذه تدخل تحت هذا الظن السوء باعتقاد أن مشيئة الله مشيئة مجردة ليست عن حكمة ، والله عز وجل له المشيئة النافذة والقدرة الشاملة والحكمة البالغة ، له سبحانه المشيئة النافذة ؛ ما شاء كان طبقًا لما شاء جل وعلا، وله القدرة الشاملة؛ فهو على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وله الحكمة البالغة؛ لا يفعل شيء إلا عن حكمة جل وعلا . قال : «**فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار**» .

قال رحمه الله :

((وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسْلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده)) .

نعم يقول رحمه الله تعالى – وهذا تنبيه مهم – لما تكلم عن سوء الظن في ضوء الآيات المتقدمة وأنه من عقائد الكفار والمنافقين وهو من أوصاف أهل النفاق ؛ لما ذكر ذلك وساق الأدلة عليه نبَّه هنا إلى أن سوء الظن كثير من الناس لا يسلم منه ويصيبه ما يصيبه من سوء الظن بالله تبارك وتعالى ، ولاسيما عند الشدائد أو المصائب أو نقص الأحوال أو وجود الأمراض أو غير ذلك من الأمور ، يتطرق إلى كثير من الناس من سوء الظن بالله تبارك وتعالى ما يتنافى مع كمال التوحيد الواجب ، ويكون هذا من نقص إيمان العبد ونقص توحيده بالله جل وعلا ، ولهذا يقول : «**وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم**» ؛ تجد مثلا شخص يُعرف بالعبادة والديانة والاستقامة والمحافظة على طاعة الله ومشهور بين الناس بذلك ، ثم يصاب مثلا بكرب عظيم وشدة عظيمة ، يصاب ببلاء ، بأسقام مثلا أوجاع أو أشياء من هذا القبيل ، فبعض من يكون عنده قصور في الإيمان أو قصور في التوحيد تجده مثلا يقول: "فلان !! فلان هو الذي حصل له كذا العابد المستقيم المحافظ على طاعة الله!! ما يستاهل ، فلان الذي حصل له !! لو كان حصل لفلان" انظر كيف يدخل عليه .

وذكر العلماء بعض النقول التي تأتي حتى ألسنة بعض العبَّاد ، تجد مثلا بعضهم يصاب بشيء من هذه الأمور ، أحدهم كان معروفا بشيء من العبادة فأصابه جرب قال : "هذا لا يصلح لمثلي ، هذا لجمل يصلح" ؛ هذا كله منشأه خلل في هذا الباب ، تجد الإنسان مثلًا يجد نفسه في فقر وفي قلة ذات يد إلخ وهو في عبادة وفي إيمان وصلاة وطلب علم ثم يمر بقصر لأناس فيهم فسق فيقع فيه شيء من سوء الظن بالله يقول : "أنا اللي عندي

عبادة وعندي الاستقامة وعندي الطاعة ولا عندي مثل هؤلاء ولا حصل لي مثل هؤلاء ، وهؤلاء فساق وحصلوا هذا الأمر!! " . مثل هذه الأمور راجعة إلى خلل في الإنسان وفي إيمانه ، وقصور في هذا الباب ؛ باب حسن الظن بالله ، وباب المعرفة بالله تبارك وتعالى ، وإلا هذا الأمر الذي هو ما يحصل للإنسان من نِعم الدنيا أيًّا كانت صحة عافية مال مسكن الخ ، أو ما يقابل ذلك من فقر أو مرض أو سقم أو غير ذلك هذا كله ابتلاء وامتحان ، لم يعطِ هذا تكريمًا ولم يعطِ هذا تضييقًا ، وإنما ابتلى هذا وابتلى هذا ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ قال الله ﴿كَلَّا﴾[الفجر:١٥-١٧] يعني ليس كما تظنون أو كما تقولون وإنما هذا مبتلى وهذا مبتلى ، هذا مبتلى بالسراء وهذا مبتلى بالضراء ، وذاك نجاحه في ابتلائه أن يشكر الله سبحانه وتعالى ، وهذا نجاحه في ابتلائه أن يصبر على قضاء الله ، فإذا شكر من ابتُلي بالسراء نجح في امتحانه ، وإذا صبر من ابتلي بالضراء نجح في امتحانه .

وبين العلماء خلاف قوي أيهم أفضل؛ الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟ لأن كل منهما حقق العبودية التي عليه ، الغني الشاكر حقق العبودية التي هي عبودية الشكر ، والفقير الصابر حقق العبودية التي هي عبودية الصبر ، يقول ابن القيم رحمه الله سألت شيخ الإسلام عن هذه المسألة قلت : أيهما أفضل الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟ قال: «الأفضل منهما الأتقى لله» ، قيل له فإن كانوا في التقوى سواء؟ قال: «هم في الأجر سواء» ؛ لأن هذا حقق عبوديته فشكر ، وهذا حقق عبوديته فصبر ، فكلٌ منهما حقق العبودية التي تتعلق به ؛ ذاك عبوديته الشكر فحققها ، وهذا عبوديته الصبر فحققها فهم في الأجر سواء يقول رحمه الله تعالى .

فالشاهد أن كثير من الناس لا يسلم من ذلك ، ومنشأ ذلك خلل وقصور وضعف في تحقيق الإيمان الواجب بالله سبحانه وتعالى .

قوله «**ولا يسْلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده**» هذا تنبيه إلى أهمية معرفة الأسماء والصفات والعناية بها ، وأن العبد كلما قوي عنايةً بهذا الباب الشريف العظيم وعظمت عنايته به ترتب على ذلك أنواع وأبواب من الصلاح والفلاح ؛ من صلاح القلب وصلاح اللسان وصلاح العمل بحسب هذه المعرفة وقوتها في قلب العبد .

قال رحمه الله :

((فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء)) .

قال: «**فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا**» يعني يعتني بهذا المقام العظيم مقام حسن الظن بالله المبني على حسن المعرفة به ، «**وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء**» . ثم يقول :

((ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟ فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ، وإلا فإني لا إخالك ناجيا)) .

وهذه ثمرة العلم والتعلم والتفقه في دين الله تبارك وتعالى ؛ عندما يتعلم المرء بابًا من أبواب العلم يبدأ يحاسب نفسه في ضوء ما تعلم ، وينظر يفتش في قصوره في هذا الجانب وتقصيره والنقص الذي عنده ، ثم يبدأ يعالج نفسه ويعالج القصور والخلل الذي عنده ، وإلا ما فائدة العلم ؟ وما فائدة التكثر من العلم ؟ ولهذا لما بيَّن هذه المسألة رحمه الله قال –والكلام لابن القيم– «**ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا**» أي من أنواع الاعتراضات والتسخطات وعدم الرضا بما قضاه الله سبحانه وتعالى «فمستقلٌ ومستكثر» ؛ هذا حال أكثر الناس .

ثم يقول مؤكدًا : «**وفتش نفسك هل أنت سالم؟**» تفقد نفسك ،حاسب نفسك ،زِن نفسك «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا » ، زن أعمالك وفتش قلبك ، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] ؛ وهذا أصل كما قال العلماء في محاسبة النفس ؛ فليحاسب اللبيب نفسه في هذا الباب وليتُب إلى الله ، إن كان عنده خلل أو تقصير أو إخلال في هذا المقام العظيم فليتب إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك .

قال: «**فإن تنج منها**» أي هذه الخصلة ، البيت قيل في مقام آخر لكن سياقه هنا «إن تنج منها» أي من هذه الخصلة «**تنج من ذي عظيمة**» تنجو من أمر عظيم خطير جدا مهلِك لصاحبه ومردي له ، كما قال الله تعالى ﴿ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٣-٢٤] .

«**وإلا فإني لا إخالُك ناجيا**» أي لا أظنك ناجيا إن لم تنجُ من هذه الخصلة ، ومعنى ذلك أن هذه الخصلة لها ما وراءها ؛ إن نجوْت منها التي هي سوء الظن فقد نجوت ، وإن لم تنجُ منها لا أظنك تنجو ، لأن هذا يعتبر أساس مهم ، فإذا صلح هذا الأساس صلح ما بعده ، وإذا فسد واختل هذا الأساس اختل أيضًا ما بعده .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: تفسير آية آل عمران.

وهي قول الله عز وجل: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، ومر معنا كلام ابن القيم رحمه الله تعالى الوافي في تفسيرها .

الثانية: تفسير آية الفتح.

وهي قول الله عز وجل: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ إلى تمامها ، ومر أيضًا شيء مما يتعلق بتفسيرها .

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواعٌ لا تحصر.

الإخبار أن ذلك أي سوء الظن بالله أنواع لا تحصى ، أي أنواع كثيرة جدًا لا يمكن حصرها ، لأن كل خلل مبني على سوء المعرفة بالله وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى راجع إلى هذه الخصلة التي هي سوء الظن بالله جل وعلا .

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

«أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات» وهذا المعنى مر عند ابن القيم رحمه الله في كلامه المتين قال: «ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده» ، وعرفنا الارتباط بين حسن الظن والمعرفة ، لأن مبنى حسن الظن على حسن المعرفة ، المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورحمته وجلاله وكماله . ولهذا ينبغي على المسلم أن يصاحبه حسن الظن بالله في كل تعبُّداته ، وأوضح ذلك :

- مثلًا إذا دعوتَ الله فأحسن الظن بالله وتذكر قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فأحسِن الظن بالله أن يجيب دعاءك وأن يحقق رجاءك وأن يعطيك سؤلك .
- إذا كنت مذنبًا ومقصِّرًا أحسن الظن بالله؛ لا تستولي عليك الذنوب والمعاصي والآثام وتقول ذنوبي كثيرة ويستولي عليك اليأس والقنوط ، لا تكن كذلك أحسن الظن بالله وأنه سبحانه يغفر الذنوب مهما عظمت ومهما كثرت وهو القائل جل وعلا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] .
- إذا أيضًا قلَّت ذات يدك وحاجتك أحسن الظن بالله وأنه واسع الفضل وأن خزائنه ملئى وأنه عظيم المن ، وقُل هذا لقصور في أو رحمة بي أو لطفًا بي ، أحسن الظن بالله سبحانه وتعالى ، في حال فقر الإنسان وقلة ذات يده يحسن الظن بالله بأنه واسع الفضل وأن فرجه قريب وأن تيسيره قادم وأن الرزق بيده ، ويصبر أيضا على قلة ذات اليد ويقول هذا من لطف الله بي وإرادة الخير لي ، يحسن الظن بالله جل وعلا .

- في كل مقام من مقامات الدين ينبغي أن يستصحب المرء حسن الظن بربه ومولاه ؛ إذا كان الإنسان مريض يحسن الظن بالله «اللهم رب الناس مذهب البأس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك» ، انظر قول إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء:٨٠] ، يحسن الظن بالله أن يشفيه ويلجأ إلى الله ويدعوه ، لا يقول عن مرض من الأمراض "هذا مستعصي ولا يمكن أن .." ؛ أحسن الظن بالله أيًا كان المرض ، وثمة أمراض تُعد مستعصية ولجأ من أصيب بها إلى الله وصدق مع الله وأحسن ظنه بالله سبحانه وتعالى ومنَّ الله عليه بالشفاء ، والقصص في واقع الناس والحكايات في هذا الباب كثيرة جدا .

فينبغي أن يكون العبد مستصحبًا حسن ظنه بربه سبحانه وتعالى في كل مقاماته وفي كل أحواله ، وكما قدمت أيضا هذا الحسن في الظن بالله سبحانه وتعالى راجع إلى حسن المعرفة به وبأسمائه وصفاته ورحمته وكرمه وإحسانه وجوده وفضله .. إلى غير ذلك من أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

قال : «**وعرف نفسه**»؛ إذا كان عندك اتهام في قضيةٍ ما اتهم نفسك التي زُكِّبت على الظلم والجهل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢] ، فإذا كان ثمة قصور أو خلل أو نقص لا تتهم ربك اتهم نفسك ، اعرف نفسك أنك ظلوم وجهول وأنك مقصِّر ، قُل هذه ذنوبي ، هذا تقصيري ، هذا تفريطي أنا العبد المقصر ، لُمْ نفسك اتهم نفسك .

ولهذا ينبغي أن يُنتبه إلى أن سوء الظن بالله مبني على الجهل بالله والجهل بالنفس ، لأن من عرف الله حقًا بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى أحسن الظن به ولابد ، ومن عرف أيضا نفسه حقًا بظلمها وجهلها وتقصيرها وتفريطها وأخطائها أساء الظن بنفسه لا بربه . ولهذا عندما يتحرك في الإنسان سوء الظن فليجعله على نفسه الظلومة الجهولة ، لا يجعل سوء الظن بربه الحكيم العليم الرءوف اللطيف المحسن المنان المنزه عن النقائص جل وعلا ذي الجلال والكمال والعظمة ، يجعل سوء ظنه بنفسه . ولهذا إذا وُجد سوء الظن فهذا منشأه : عدم معرفة الإنسان بربه ، وعدم معرفته بنفسه .

وهذه الفائدة ثمينة جدًا ختم بها رحمه الله قال : «**الرابعة أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات**» هذه معرفة الرب بأسمائه وصفاته «**وعرف نفسه**» ؛ معرفة الأسماء والصفات: أي معرفة الله بالكمال كمال الأسماء وكمال الصفات والعظمة والجلال والغنى والرحمة واللطف إلى غير ذلك ، وعرف نفسه بالظلم والجهل والذنب والتقصير والخطأ ، فيجعل سوء الظن بنفسه لا بربه سبحانه وتعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .